ثريا إبراهيم

«سألنى مختار فى أول لقاء: ماذا تقرأين؟ قلت: روايات. أعطانى رواية «الأم» لمكسيم جوركى. قرأت وبكيت وأحسست أن طاقة ضوء فتحت فى قلبى وعقلى. واقتربت أكثر بمختار، واقتربت معه بالنضال».

ثريا إبراهيم

(فى حوار معها)

كثيرا ما كانت الأم تحكى للأولاد حكايتها أيام ثورة ١٩١٩، كان من بين جيرانهم شابان يتفجران ثورية، عصام الدين ومجد الدين حفنى ناصف، وذات ليلة دق الباب وكان عصام ومعه لفافتان وطلب إليها أن تخفيهما لأن البوليس يبحث عن بيتهما ليفتشه، منشورات تدعو للثورة ومسدس. الأم بحاسة غريبة خبأت المنشورات فى جوال الأرز والمسدس فى صفيحة الجاز. ومع حكايات كهذه كانت ثريا تتفجر انبهارا ووطنية. بيتهم كان فى مواجهة كوبرى عباس، ويوم الحادثة الشهيرة تساقط عشرات الجرحى والقتلى، أما الجرحى فكان بيتهم مكانا ومخبأ لمن يختفى من البوليس.

الأب بك محترم مدير عام مدارس الصنايع بوزارة المعارف، وكان من تلامذته فنان شهير هو زكريا الحجاوى. وقف زكريا معها ذات يوم فى البلكونة، لقت نظرها إلى شاب أحمر الشعر أبيض البشرة وقال لها: «الولد كويس ونفسه يتعرف بيكى». تعارفا وتزوجا، وفى بيتها كان كثيرون يأتون، يجتمعون معا فى حوار ممتد، يرتفع صوتهم أحيانا فى حوار حميم، سألت، وأجاب، وطلبت أن تشاركه فرفض خوفا عليها، صممت.. فوافق. وبدأت.. «خذى هذه اللفافة سلميها لفلان، هاتى لفافة من المنزل الفلانى»، وذات يوم أعطاها مظروفا وقال لها: «اذهبى إلى محل استرا فى التحرير. سيحضر شاب أسمر له شارب هو خارج لتوه من السجن، سيكون مراقبا فى الأغلب ولهذا من يقابله يجب ألا

يكون معروفا». سيدة شيك تجلس فى استرا تبتسم لكل أسمر له شارب وكلهم يبتسمون ويغازلونها، الرفيق أتى.. لم يبتسم.. توجه إليها مباشرة وكأنه يعرفها، أخذ المظروف ومضى. (كان الرفيق فتحى خليل الصحفى فى روزاليوسف). بعد هذه الواقعة تمردت، تريد أن تناضل كما يناضلون. وقابلها مختار مع مسئولة هى ليلى الشال. عملتا معا لفترة طويلة، وعندما التهبت مصر مع تأميم القناة التهبتا معها هما وكل الرفاق.

وفى اللجنة النسائية للمقاومة الشعبية ذاقت ثريا طعما آخر للعمل النسائى. فقد عملت من قبل فى الهلال الأحمر وجمعية نهضة المرأة، وجمعية رعاية الأسرة. النسـاء فى هذه الجمعيات مختلفات يحببن المظاهر ويهوين الإعلان عن نشاطهن. لكن هذه اللجنة شىء آخر. ذات يوم حضر اجتماع اللجنة صحفى حاول أن يصورهن رفضت هى وليلى «نحن لا نحتاج دعاية لأنفسنا»، ومع اشتعال الحرب اشتعل الحماس هى وليلى وغيرهما تدربن على السلاح ولبسن الأوفرول الكاكى وسافرن إلى الجبهة.

وعندما تمتلك المرأة حق الانتخاب كجزء من الانتصار المصرى على التخلف تخوض معركة جماهيرية لقيد آلاف السيدات فى جداول الناخبين، لكن عملها الجماهيرى لم يتعارض مع نضالها السرى الذى أتقنت فنونه، ففى ١٩٥٤ قبض على مختـر وكلفها التنظيم إيصال أوراق ورسائل إليه فى المعتقل. تأملت، تذكرت عبقرية أمها.. جوال الأرز وصفيحة الجاز.. وفعلت مثلها وإنما بأدوات حديثة، الرسائل تسربت إلى السجن عبر أنابيب معجون الأسنان والصابون. واعتمد التنظيم طويلا على كفاءة «الرفيقة إلهام» فى العمل السرى، وتقول فى حوارها معى: «كنت حذرة جدا، البوليس لم يستطع أبداً أن يراقبنى.. تذكرت دوما الأم فى رواية جوركى وفعلت مثلها». وفى يناير ١٩٥٩ هاجم البوليس البيت كان مختار فى المنصورة، قالت لا تعرف أين هو، كلمته تليفونيا من السنترال: «العيلة كلها سافرت خليك عندك». وهرب مختار واستمرت إلهام فى نضالها السرى. وفى ٢٩ مارس أتوا مرة أخرى، ابتسم الضابط: «المرة دى مش علشان الدكتور مختار، ولكن علشانك انتى». انقسم قلبها، نصفه طار نحو مختار الهارب فى الدقهلية ونصفه ارتمى تحت أقدام ابنتهما «مير». كانت قد أعدت خطة للهروب إذا أتى البوليس تطلب أن تغير ملابسها، تقفز من الشباك إلى الحديقة الخلفية ومنها إلى حديقة الجيران ثم إلى شارع بعيد. لكن كيف تهرب ومير وحدها، أرسلت مير إلى بيت أمها، لكن أختها كانت

هناك ولم تكن تحب مختار، هذا الطبيب المشاغب الذى أخذ بنت الأكابر ليمرمطها فى هذا الذى يسميه نضالاً. ظلت صورة «مير» تراودها، فقط تريد أن تراها ولو مرة واحدة، لكن أختها تأبى بحجة أن «البنت صغيرة وميصحش تعرف إن أمها فى السجن». الدكتورة «أيدا» طبيبة السجن انفطر قلبها حزنا على حزن ثريا وقررت إرسالها إلى القصر العينى لإجراء عملية غير ضرورية، وترفض الأخت إرسال «مير» إليها. رغبتها الجامحة فى رؤية «مير»، لقنتها فنونا غريبة من المغامرة، كانت فى مستشفى الحميات أتفقت مع عسكرى الحراسة أن تخرج معه لساعة واحدة فى عربة الموتى، ترى «مير» وتعود، وفى المساء خرجت كلمات ثريا: «أنا جاية اشوف مير»، صرخت الأم: «مأمور قسم الجيزة ساكن فى بيتنا ولو شافك حيودى الناس اللى معاكى فى داهية». وعادت بعربة الموتى دون أن ترى «مير» كانت شديدة المراس وكثيرا ما علا صوتها فى وجه المأمور الذى لم يتعود إلا على الخضوع التام من السجناء، يعلو صوتها بشدة وهو ينهار فى أزمة قلبية. الباشسجانة عرفت طريق الخلاص من المأمور لعدة أيام تصرخ فيه ثريا ينهار يغيب أياما ويعود.

وذات يوم عرفت أن مختار قبض عليه، تمزقت شوقا لرؤيته، كان فى سجن القناطر (رجال)، وهى فى سجن القناطر (نساء)، حائط واحد يفصلهما.. الدكتور صادق حكيمباشى السجنين قبل أن يستقبلها فى سجن الرجال بحجة الحاجة إلى فحصها بجهاز موجود هناك، أحضر د. مختار، هى ذهبت آخر شياكة وبمكياج يليق بلقاء الزوج الحبيب. هو أتى حافيا يلبس ثياب السجن، حليق الشعر.. إنه المكياج الناصرى للسجناء.

حكم عليها بالسجن سنتين. انتهت السنتان أخذوها إلى مباحث أمن الدولة، طلبوا إليها أن تكتب استنكاراً للشيوعية وولاءً لعبد الناصر. رفضت. الضابط قال لها: «اكتبى كده وكده علشان تخرجى وتشوفى مير» رفضت. وعادت إلى السجن. وتخرج من السجن فى ١٩٦٣ ويخرج مختار فى ١٩٦٤. واحتاجت إلى جهد فائق كى تقترب من «مير» وكى تتقبل «مير» (خمس سنوات فى هذا الوقت) أن هذه السيدة أمها.

وفى اليوم الأول لتأسيس منبر اليسار أتت ثريا ومختار وأصبحا عضوين نشيطين فى صفوفه. ثم فى صفوف حزب التجمع. ثم يرحل مختار فى حادث سيارة وتهب ثريا كل حياتها للتجمع حتى ترحل هى أيضا.